المحاضرة السابعة

المــرض

يجد البشر أنفسهم حتمًا في مواجهة المرض أو الاعتلال الصحي حتى في أفضل الظروف، فإن السؤال المركزي للأنثروبولوجيا الطبية هو، ما هو المرض؟ من الواضح سبب أهمية هذا التقصي نظرًا لأن لأهميته بالنسبة لمجال الأنثروبولوجيا الطبية، وقد مال علماء الأنثروبولوجيا الطبية إلى تجنب السؤال تمامًا من خلال تعريف المرض (أي المظاهر السريرية) كمجال للطب والاعتلال الحي (أي تجربة المريض) باعتباره المجال المناسب للتحقيق الأنثروبولوجي. ومع ذلك من منظور الرابطة الطبية، فإن تصنيف المرض على أنه خارج عن اهتمام أو خبرة علماء الأنثروبولوجيا هو تراجع عن القاعدة التي هي الاجتماعية بقدر ما هي بيولوجية بطبيعتها.

ينظر البشر في جميع المجتمعات إلى المرض على أنه حدث مدمر يهدد بطريقة أو بأخرى تدفق الحياة اليومية. ويثير المرض أسئلة أخلاقية مثل "لماذا أنا مريض؟" أو "لماذا أعاقب؟" ويمكن أن تكون بمثابة آلية للتعبير عن المعارضة للترتيبات الاجتماعية والثقافية القائمة .يعاني الناس حول العالم مثل هذه الأسئلة الوجودية، بما في ذلك مسببات المرض. على سبيل المثال، بينما يقر الأزاندي في السودان بأن المصائب، بما في ذلك المرض والموت، قد يكون لها أسباب متنوعة، فإنهم يعزون جميعها تقريبًا إلى السحر الضار (witchcraft) أو السحر الاسود (sorcery) أو عدم اتباع قاعدة أخلاقية[1]. فشعب الأزاندي الذي يبلغ سكانه حوالي مليون نسمة. ويمتد من حوض النيل الأعلى في جنوب السودان إلى حدود الغابات المطيرة شبه الاستوائية في زائير (جمهورية الكونغو الديمقراطية). وتقريبًا الى الحدود الحالية لجمهورية إفريقيا الوسطى والسودان وزائير، وان طبيعة الأرض التي يعيش عليها الازاندي هي أساسًا بلاد السافانا، مع مناطق غابات

[1] Evans-Pritchard, E. E. 1937. *Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande.* Oxford: Oxford University Press.

صغيرة وتيارات صغيرة لا حصر لها. وتشكل الزراعة، وكذلك الصيد والتجمع، أنشطة الكفاف الأساسية. وان الماشية والماعز والأغنام غائبة تمامًا. وذلك لأن نوعًا من الطفيليات ينجذب إلى مثل هذه الحيوانات ويحمل مرض النوم ويمكن أن يصيب كل من الحيوانات والبشر. ويتم الاحتفاظ بالدجاج، ولكن ليس كغذاء؛ وانما، يلعب دورًا رئيسًا في التكهن من خلال بعض المقولات السحرية.

يميز الأزاندي بين السحر الأسود والسحر بمعناه العام، والمصطلح الأخير لا يشمل الإجراءات السحرية فحسب، انما يشمل أيضًا الأدوية العشبية والأدوية الأخرى. في حين أن السحر الاسود قد يكون بسبب الكراهية أو الحسد أو الطمع اللا واعي الذي قد يشعر به الفرد، في حين ان السحر يعمل كوسيلة لمواجهة السحر الاسود من خلال التلاعب الواعي بالأدوية. يحتل الأبينزا (abinza) أو "الطبيب الساحر witch–doctor"، مكانة فريدة في مجتمع الزاندي، وهو ساحر عن طريق التجارة. لديه وظيفتان رئيسيتان. الأول هو البيع أشياء للناس مثل الأدوية والتعاويذ. والتخصص الثاني للطبيب الساحر هو تعقب السحر ومكافحته. والأطباء السحرة الذين يبيعون خدماتهم السحرية أمر شائع في الأزاندي، ويتخذ سحرهم عمومًا شكل الصفارات أو التمائم أو التعويذات أو ما شابه. ويمكن شراء السحر؛ كما أنه مملوك بشكل فردي، ولدى الطبيب الساحر القدرة على كل من السحر والسحر الضار، وبما أنه يستطيع مساعدة الآخرين أو إيذائهم، فهو محترم. وخلال جلسات تحضير الأرواح يتمتع أطباء السحرة في الأزاندي بالمهارة في عدد من الجوانب المختلفة للسحر، ويتم استشارتهم لعدد من الأغراض المختلفة، وللطبيب الساحر تخصصات ووظائف مختلفة في مجال السحر، وهي مرتبطة ومتكاملة مع بعضها البعض: انه العراف والساحر، وبوصفه عرافاً فان مهمته فضح السحرة، وبوصفه ساحرا فان مهمته احباطه، لكنه يعامل بوصفه إله في الأساس. الأمر ببساطة هو أن الأطباء السحرة لديهم سيطرة قوية على السحر حتى لا يؤذي الآخرين أو ممتلكاتهم.

الصحة والمرض هما الظروف التي يواجهها الناس في المجتمع، اعتمادًا على وصولهم إلى الموارد الأساسية واعتباراتهم. ويختلف المرض من مجتمع إلى آخر، ويرجع ذلك في جزء منه

إلى الظروف المناخية أو الجغرافية ولكن في جزء كبير منه بسبب الطرق التي يتم بها تنظيم الأنشطة الإنتاجية والموارد والتكاثر وعملية تنفيذها. ومن الواضح أن مناقشة مشاكل صحية معينة بصرف النظر عن سياقاتها الاجتماعية تعمل فقط على التقليل من أهمية العلاقات الاجتماعية الكامنة وراء الظروف البيئية والمهنية والتغذوية والسكنية والتجريبية، فالمرض ليس مجرد نتيجة مباشرة لمُمْرِض (مسبب المرض pathogen) أو اضطراب فسيولوجي. بدلاً من ذلك، تساهم مجموعة متنوعة من المشكلات الاجتماعية مثل سوء التغذية، وانعدام الأمن الاقتصادي، والمخاطر المهنية، والتلوث الصناعي والسيارات، وسوء الإسكان، والعجز السياسي في التعرض للأمراض.

باختصار، يجب فهم المرض على أنه اجتماعي بقدر ما هو بيولوجي. في ضوء ذلك، فإن الميل، سواء كان ذلك في الطب أو في الأنثروبولوجيا الطبية، لمعالجة المرض على أنه أمر مفروغ منه، كجزء من الواقع المادي الثابت، يساهم في الميل إلى إهمال أصوله الاجتماعية.

تسعى الرابطة الاكاديمية الطبية، وفقًا لمصطلحات ماكنيل (McNeil) إلى فهم طبيعة العلاقة بين **الطفيليات الدقيقة** (الكائنات الدقيقة، والخلل الوظيفي، والسلوكيات الفردية التي هي الأسباب المباشرة لكثير من المرض) أي هي الأشكال الصغيرة التي تعيش على حياتنا – كالكائنات الحية الدقيقة أو الفطريات أو الحشرات أو الحيوانات الصغيرة مثل الفئران والجرذان، **والطفيليات الكبيرة** (العلاقات الاجتماعية للاستغلال التي هي نهاية المطاف. أسباب الكثير من المرض) أي التي تتغذى على البشر الآخرين، اذ مع انفتاح طرق التجارة، ألحقت التجارة في الطفيليات الدقيقة نفسها بالتجارة أيضًا. فالطاعون الدبلي، على سبيل المثال، دخل أوروبا على متن سفينة تجارية. في الوقت نفسه، خلقت التجارة أيضًا طفيليات كبيرة جديدة – قراصنة وعمال طرق[1].

[1] McNeill, William H. 1976. *Plagues and Peoples.* New York: Anchor Books.